محمد ﷺ جذوة الحب

الأستاذ عبد الرحمن السماويّ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله..

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله النبي ﷺ قال: «من أشدّ أمتي لي حباً ناس يكونون بعدي، يودّ أحدهم لو رآني بأهله وماله» [رواه مسلم].

اعلم أن شخصية المسلم الصحابيّ تكونت من خلال عوامل ثلاثة:

أولها: القرآن الكريم.

ثانيها: السنّة النبوية.

أما العامل الثالث فهو شخص النبي ﷺ..

والفصل هنا بين السنة النبوية وبين شخص النبي ﷺ له ضرورة في بعض الأبحاث والتفصيلات ليس هذا مكان بسطها.

شخص النبي ﷺ كمثال ونموذج لهذا الدين، ونموذج للكمال الإنساني كان وجوده في الواقع معهم مهم في تكوين الشخصية الفريدة للمسلم الصحابي، فالإنسان المحب يعظم ويرتقي كلما كان محبوبه عظيماً، إذ وجود الحبيب من أقوى عوامل تكوين الشخصية، بل الحب نفسه هو إكسير الحياة وأساسها كما يقول ابن القيّم، وفقدان المرء لهذه الجذوة تجعله بارداً عاجزاً ضعيفاً..

حسان بن ثابت ـشاعر الرسول ﷺـ فداه رسول الله ﷺ بنفسه، ودعا له بتأييد أمين الوحي له، وسمى شعره نبالاً، هي خصال الواحدة منها تكفي لتملأ النفس عزّة ورفعة، فكيف إذا اجتمعت في شخص واحد.

كيف غاص حسان الشاعر في هذا المثال العظيم وهذه الشخصية الآسرة؟ ماذا وجد فيها؟ وماذا استهواه فيها؟:

قال حسان:

وَأحْسَـــنُ مِنْـــكَ لَمْ تَـــرَ قَـــطُّ عَيْـــنِيْ   وَأَجْمَـــلُ مِنْـــكَ لَمْ تَلِـــدِ النِّســـاءُ
خُلِقْـــتَ مُبَـــرَّأً مِـــن كُـــلِّ عَيْـــبٍ   كَأَنَّـــكَ قَـــدْ خُلِقْـــتَ كَمَـــا تَشَـــاءُ

إن كان الشعر يقاس بصدق المقال وحسن البيان فما أظنّ أنّ شعراً في المدح يصدق كما صدق هذا الشعر، وما أظن أن أحداً يبلغ في المدح مبلغه، مع سهولته على النفس ورقته عند قراءته، لو قال حسان: وأحسن منك لم ترَ قطّ عيني، لقيل له: لكنك لم ترَ كلّ البشر، فقد رأيت القليل وفاتك الكثير، أمّا بعد قوله: وأجمل منك لم تلد النساء، فقد قطع فيه الظنون وأتى عليها من أصلها، فحكمي على الغائب هو نفس حكمي على الحاضر.

ثمّ إنه يصف في ممدوحه اجتماع حسن الظاهر مع جمال الباطن، إنه جمال الخلقة حين تجتمع مع حسن الخلق، وهو خلق فطري مجبول عليه لا يتكلفه: خلقت مبرأً من كل عيب.. لكن هل هو خلق يستحقه أم هو غير مدرك له؟

لا إنّه خلق يحسّ به، ولو لم يجبل عليه لطلبه وسعى له.

كأنك قد خلقت كما تشاء.

فبالله عليك هل هناك أسمى من هذا المخرج في مدح الخالق المنّان على عبيده بهذا الرسول، مع مدحه كذلك لهذا المخلوق الحبيب..

كأنك قد خلقت كما تشاء.

روي أن عائشة ﵂ طلب منها أن نصف رسول الله النبي ﷺ فقالت: والله كما قال شاعره حسان بن ثابت ﵁:

حَـتّى يَبْـدُو فِيْ الـدَّاجِي البَهِـيمِ جَبِينَـهُ	يَلُـحْ مِثْـلَ مِصْـبَاحِ الـدُّجَى مُتَوَقِـدِ
فَمَـنْ كَـانَ أَوْ مَـنْ قَـدْ يَكُـونُ كَأَحْمَـدِ	نِظَـامٌ لِحَـقٍ أَو نِكَـالٌ لِمُلْحِـدِ

ثم إن المقدمات اللازمة لحصول المحبّة، وإلا فكيف للمرء أن يمتثل قول النبيّ ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجميعن» دون أن تبهره مقدمات هذه المحبة من المحبوب. وهي تراها كما هي كأختها السابقة: جبين مثل مصباح الدّجى، جمال يريح النفس، يصفه رجل محبّ يعبر عن نفوس جمعاء حوله تتملى منه، ترنو له محبة وشغفا.. ثم: هو نظام الحقّ في بنائه لنفوس أصحابه، وفي بنائه لمجتمع الخير الذي هو فيه، أمّا لأعدائه وخصومه فهو النكال، إنّه الرحيم بأصحابه، الناكل بأعداء الدين «لقد كان خلقه القرآن». فداك الأب والأم.

ثم انظر إلى ما قاله أصيد بن سلمة ـ من بني كلاب ـ:

إنّ الـــذي سَمَـــكَ السَّـــماءَ بِقدرتـــهِ حَـــتى عَـــلا في مُلْكِـــهِ فَتَوَحَـــدا
بَعَـــثَ الـــذي لا مِثْلَـــهُ في مـــا مضـــى يَـــــدعو لِرَحْمَتِـــــهِ النّـــــبيُّ مُحَمَّداً
ضَـــخْمُ الدســـيعَةِ، كَالغَزَالَـــةِ وَجهُـــهُ قَـــرنٌ تَأزّرَ بالمكـــارِمِ وارْتَـــدى[1]
فَـــدَعا العبـــاد بِدِينِـــهِ فَتتـــابَعوا طَوعَـــاً وَكَرْهَـــاً مُقْبِلـــينَ عَلـــى الهُـــدى

إنّه لا يمكن للأوامر والزواجر أن تنتظم في نفس الإنسان سلوكاً صادقاً وحركة راغبة تؤثر دون أن يخالطها الحبّ، ولا يمكن أن يمتثل الرجل أمر رجل دون أن يحبه، وأن تمتلأ نفسه بالتبجيل والتعظيم له، فهو به وحده إن وقع في القلب وغزا النفس يجود الرجل بنفسه فداءً لمحبوبه، ويبذل المال من أجل بسمة من وجهه، ويهجر لذيذ الحياة من أجل كلمة رضا، فبالحبّ وحده يقول حسان:

فَـــإنَّ أبي وَوَالِـــدَه وعِرضِـــي لِعِـــرْضِ مُحَمَّـــدٍ مِـــنْكُمْ وِقَـــاءُ

إي والله.. لولا الحب لهذا النبي العظيم لما قال حسان هذا، وهم لا ينسون في مقالهم وحديثهم أن يذكروا هذا الحبّ وأن يعبروا عن هذه المشاعر العظيمة في أشدّ الحالات وأصعبها، يقول سماك بن خرشة (أبو دجانة) ﵁ في حضرة الموت والقتال:

أَنا الـــذيْ عَاهَـــدَنيْ خَلِيلـــي وَنَحْـــنُ بِالسَـــفْحِ لَـــدى النّخيـــلِ
أن لا أَقُـــومَ الـــدَّهرَ في الكَيـــول أَضْـــرِبُ بِسَـــيْفِ الله والرَّســـولِ[2]

فهو خليلهم وحبيبهم، يحسون بها عند كلّ أمر وعند حضور كل عهد.

وهذا ليس حضور واحد بل هو حضور الجميع.. يقول الطفيل بن عمرو بن طريف الدوسيّ:

أَلَا أَبْلِـــغْ لَـــدَيْكَ بَـــنِي لـــؤيٍّ عَلـــى الشَـــنآنِ والغَضَـــبِ المـــردِّيْ
بِأنَّ الله ـ ربّ العَـــرشِ ـ فَـــردٌ تَعَـــالى جَـــدّه عَـــن كـــلِّ نِـــدِّ
وأَنَّ مُحَمَّـــداً عبـــد رســـولٌ دَليـــلُ هـــدىً، ومَوْضِـــعُ كـــلِّ رُشـــدِ

---

[1] الدّسيعة: الجفنة الواسعة والمائدة الكريمة، والدسيع من الإنسان: العظم الذي فيه الترقوتان. والقرن من القوم: سيدهم. تأزّر: لبس الإزار.
[2] ﷺ، والكيول: مؤخر الصفوف.

رأيـــــتُ دلائــــــلاً قَــــــد أَنبَــــأتني بأنَّ ســـــــبيلهُ يَهـــــــدي لِقَصْــــــدِ
وأنَّ الله جَلَّلـــــــــــــــهُ بهـــــــــــــاءً وأعلـــــى جَـــــدّه عَـــــن كـــــلِّ جـــــدِّ

ويقول ظبيان بن كراد الإياديّ:

فَأشْــــهَدُ بالبَيْـــتِ العَتيـــقِ وبِالصَّـــفا شَـــــهادةَ مـــــن إحســــانه مُتَقَبّـــــلُ
بِأنّـــــكّ مُحْمــــودٌ لَــــديْنا مُبَــــارَكُ وفيٌّ أمـــينٌ صَـــادِقُ القـــولِ مُرسَـــلٌ

ويقول قطن بن حارثة العليميّ الكلبي:

رَأيْتُــــكَ يا خَــــيرَ البريّـــةِ كُلِّهـــا تبـــثُّ نضـــاراً في الأَرُمـــةِ مِـــنْ كَعْـــبِ[1]
أغَـــرُ كـــان البـــدرُ ســـنةَ وَجْهِـــهِ إذا مـــا بَـــدَا للنّـــاسِ في حلـــل العصْـــبِ[2]
أَقمـــتَ سَـــبيلَ الحـــقِّ بعـــدَ اعوجَاجِهـــا وبَيْـــتَ اليتـــامى في السِّـــقايةِ والجـــدْبِ

قال عبد الله بن هشام: كنّا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عُمر: يا رسول الله، لأنت أحبّ إليّ من كلّ شيء إلا من نفسي، فقال النبيّ ﷺ: لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبّ إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنّه الآن والله لأنتَ أحبّ إليّ من نفسي، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: الآن يا عُمر..

---

(١) النّضار: الذهب الخاص. الأرومة: أصل الشيء.
(٢) العصْب: من برود اليمن.